المحاضرة الأولى

فاتحة الكتاب

«مكية وآياتها سبع بالإجماع»

بين يدي السورة

هذه السورة الكريمة لها عِدّة أسماء، اشتهر منها ما يلي:

أولاً: (**الفاتحة**) لافتتاح الكتاب العزيز بها، حيث إنها أول القرآن في الترتيب المعهود، لا في النزول.

قال ابن جرير الطبري: «سُميت (فاتحة الكتاب) لأنها يُفتح بكتابتها المصاحف، ويُقرأ بها في الصلوات»[1].

ثانياً: (**أم الكتاب**) لاشتمالها على المقاصد الأساسيّة للكتاب العزيز، ففيها الثناء على الله جلّ وعلا، وفيها إثبات الربوبيّة، وفيها التعبّد بأمر الله سبحانه ونهيه، وفيها طلب الهداية والثبات على الإيمان، وفيها الأخبار عن قصص الأمم السابقين، وفيها الاطلاع على معارج السعداء، ومنازل الأشقياء.. إلى غير ذلك فهي كالأم بالنسبة لبقيّة السور الكريمة، والعرب تسمّي كلّ أمرٍ جامع (أمّاً) فتقول: لمكة المكرمة (أم القرى) لأنّ غيرها تبع لها، وتُسمّي راية الحرب أمّاً، لتقدمها واتباع الجيش لها، ويقال للأرض أمّ لأنها تجمع الخلائق في بطنها، قال الشاعر:

فالأَرْضُ مَعْقِلُنَا وَكَانَتْ أُمَّنَا ... فيها مَقَابِرُنَا وفيها نُولَدُ[2]

---

(١) جامع البيان للطبري ١/٤٧.

(٢) البيت لأمية بن أبي الصلت، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/١١٢.

obeikandl.com

ثالثاً: (**السبع المثاني**) لأنها سبع آيات تثنى في الصلاة، أي تكرّر وتعاد، فالمصلّي يقرؤها في كلّ ركعة من ركعات الصلاة، وقد رُوي عن جمع من الصحابة أنهم فسّروا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِي..﴾ بأنّ المراد بالسبع المثاني (سورة الفاتحة) لأنها سبع آيات بإجماع القرّاء والعلماء.

وقد ذكر **العلامة القرطبي** في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) أنّ لهذه السورة اثني عشر اسماً منها (الشفاء، الوافية، الكافية، الأساس، الحمد) إلى آخر ما ذكره، ممّا روي إمّا بتوقيفٍ من النبي ﷺ أو باجتهاد من الصحابة الكرام، وذكر الألوسي أنّ بعض العلماء أوصلها إلى نيِّفٍ وعشرين اسماً، وعدّدها في تفسيره المسمى روح المعاني[1].

ما وَرَدَ في فضل سورة الفاتحة

أولاً: روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد بن المُعَلّى رضي الله عنه أنه قال: (كنتُ أصلّي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجب حتى صلّيتُ، ثمّ أتيته، فقال: ما منعك أن تأتي؟ فقلتُ يا رسول الله: إني كنت أصلّي، فقال: ألم يقل الله: ﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ ولِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثمّ قال لي: لأعلمنّك سورةً هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد!!

ثمّ أخذ بيدي، فلمّا أراد أن يخرج قلت له يا رسول الله: ألم تقل لأعلمنّك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: «الحمد لله ربّ العالمين» هي السبعُ المثاني، والقرآنُ العظيم الذي أوتيته)[2].

ثانياً: وروى الإمام أحمد في مسنده أنّ «أُبيَّ بنَ كَعْبٍ» قرأ على النبي ﷺ أم القرآن، فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/١١١، وروح المعاني للألوسي ١/٣٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير ٧/١١٩، وأبو داود برقم (١٤٥٨) في الصلاة، والنسائي ٢/١٣٩.

(والذي نفسي بيده، ما أُنزل في التَّوراةِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في الزَّبور، ولا في الفرقان مثلُهَا، هي السبعُ المثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه)[1].

ثالثاً: وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (بينما جبريل عليه السلام قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء، فُتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قطّ إلاَّ اليوم، فسلَّمَ وقال: أبشرْ بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبيٌّ قبلك «فاتحة الكتاب» و«خواتيم سورة البقرة».. لن تقرأ بحرف منهما إلاّ أوتيتَه)[2].

هذه أصح الروايات التي وردت في فضل سورة الفاتحة، وقد وردت روايات أخرى غير هذه، منها ما هو صحيح، ومنها ما هو ضعيف، وفيما ذكرنا غنية عن التطويل[3] والله الموفق.

تنبيهٌ في فضائل بعض السور

ذكر العلاّمة القرطبي في تفسيره **الجامع لأحكام القرآن** باباً خاصاً، نبّه فيه على أحاديث وُضعت في فضل (سور القرآن)، ونحن نجتزىء من كلامه ببعض فقرات هامة.

قال رحمه الله: (لا التفات لما وضعه الواضعون، واختلقه المختلقون، من الأحاديث الكاذبة، والأخبار الباطلة، في فضل سور القرآن، وغير ذلك من فضائل الأعمال، قد ارتكبها جماعة كثيرة، اختلفت أغراضهم ومقاصدهم في ارتكابها.

فمنهم قوم من **الزنادقة** وضعوا أحاديث، ليوقعوا بذلك الشك في قلوب

---

(١) رواه أحمد وأخرجه الترمذي رقم ٢٨٧٨ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم رقم ٨٠٦، وانظر القرطبي ١/١١٦، وجمع الفوائد ٢/١٦٨.

(٣) انظر زاد المسير لابن الجوزي ١/١٠، وروح المعاني للألوسي ١/٤٠، والتفسير الكبير للفخر الرازي ١/١٣٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/١٠٨.

الناس. ومنهم قوم وضعوا الحديث **لهَوَى** يدعون الناس إليه، حتى قال شيخ من شيوخ الخوارج بعد أن تاب: «إنّا كنّا إذا هوينا أمراً صيّرناه حديثاً». ومنهم جماعة وضعوا الحديث حِسْبَة (أي لوجه الله) كما زعموا، يدعون الناس إلى فضائل الأعمال، كما فعل (نوح المَرْوزيّ) حيث كان يضع أحاديث في فضل سور القرآن سورة، سورة، فلما سئل عن ذلك قال: إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن، واشتغلوا بفقه (أبي حنيفة) ومغازي (ابن إسحق) فوضعت هذا الحديث حسبة.

ثم قال رحمه الله: فحذار ممّا وضعه أعداء الدين، وزنادقة المسلمين، في باب (الترغيب والترهيب) وغير ذلك، وأعظمُهم ضرراً أقوام من المنسوبين إلى الزهد وضعوا الحديث حسبة فيما زعموا، فتقبّل الناس موضوعاتهم، ثقةً منهم بهم، وركوناً إليهم، فضلوا وأضلّوا)[1].

تفسيرُ الاستعاذه

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

أعوذ: أستجير وألجأ، يقال: عُذتُ بفلان، واستعذت به، قال تعالى: ﴿وإني عذتُ بربي وربكم أن ترجمون﴾ أي التجأت واستجرت به.

قال في اللسان: عاذ به، عوذاً، وعياذاً لجأ إليه واعتصم، وفي الحديث: أن النبيّ ﷺ تزوّج امرأةً من العرب، فلمّا أُدخلت عليه قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: لقد عُذت بمَعاذٍ فالحقي بأهلك» أي قد لجأت إلى ملجأ ولُذْت بملاذ[2].

الشيطان: المتمرّد العاتي، وهو مشتق من (شَطَن) بمعنى بَعُد، يقال: شطنت داره أي بعدت، وبئر شطون أي بعيدة القعر.

قال القرطبي: وسمّي الشيطان (شيطاناً) لبعده عن الحقّ وتمرّده، وذلك لأنّ كل عاتٍ متمرّد، من الجنّ، والإنس، والدواب، شيطانٌ.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/٧٨.

(٢) لسان العرب لابن منظور، وانظر تاج العروس، والقاموس المحيط مادة (عوذ).

قال جرير:

أيّام يدعونَني الشيطانَ من غَـزَلٍ   وهنّ يَهْوَينَني إذ كنتُ شيطانـاً[1]

والشيـطان ليس مختصاً بـالجنّ، بل يـطلق على الإنس، قـال تعـالى: ﴿شيـاطين الإنس والجن..﴾ ويروى أن (عمـر) ركب على حمار فتبختـر بـه فقال: أنزلوني، فإنّما أركبتموني على شيطان[2].

الـرجيم: معناه المـرجوم، فهـو (فعيلٌ) بمعنى (مفعـول) يقال: عين كحيـل، أي: مكحول، وكف خضيب، أي: مخضوب، ورجل لعين، أي: ملعون.

قال القرطبي: وأصل الرجم: الـرميُ بالحجـارة، والرجمُ يـأتي بمعنى القتل، واللعن، والطّرد، والشتم، وقـد قيل هـذا كلّه في قولـه تعالى: ﴿لئن لم تنته يا نوحُ لتكوننّ من المرجومين﴾[3].

فالشيطان مرجوم لأنه ملعون ومطرود من رحمة الله عزّ وجل.

والمعنى: أستجيـر، وألجـأ إلى الله، وأعتصم بـه، من شـرّ الشيـطان العاتي المتمرّد، الـذي يريـد أن يغويني ويضلّني، وأحتمي بـالخالق السميـع العليم من همزه، ولمزه، ووسـاوسه، فـلا يدفـع عنّي شـرّه وضرّه إلّا الله ربّ العالمين.

تفسير البسملة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم: الاسم مشتقٌ من السـمُوّ، بمعنى الرفعة والعلُوّ، وقيل: مشتق من السِّمَـة وهي العلامة، قال القرطبي[4] والأول أصـح، وهـو مذهب البصـريين، لأنّ جمعه

---

(١) لسان العرب مادة (شطن)، وانظر تفسير القرطبي ١/٩٠.
(٢) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١/٥٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/٩٠، والفخر الرازي ١/٥٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/١٠٠.

obeikandl.com

(أسماء) وتصغيره (سُمَيٌّ)[1] قال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى﴾، والباء متعلقة بفعل محذوف، مناسب للمقام. فالقارىء حين يقول: بسم الله معناه: أقرأ مستعيناً باسم الله.

والكاتب حين يأخذ القلم ويقول: بسم الله معناه: أكتب مستعيناً باسم الله.

والآكل حين يتناول الطعام ويقول: بسم الله معناه: آكل مستعيناً باسم الله.

وهكذا كل الأفعال والأعمال يقدّر لها فعل مناسب، وفي الحديث الشريف: (كلُّ أمرٍ ذي بالٍ، لا يُبدأ فيه (ببسم الله) فهو أبتر)[2].

قال القرطبي: وتكتب (بسم الله) بغير ألف استغناءً عنها ببباء (الإلصاق) لكثرة الاستعمال، بخلاف قوله: ﴿إقرأ باسم ربك﴾ فإنها لم تحذف لقلة الاستعمال[3].

الله: اسم للذّات المقدسة، ذات الله جلّ وعلا، واجب الوجود، لا يشاركه فيه غيره.

قال ابن كثير: (الله) عَلَمٌ على الربّ تبارك وتعالى، ويقال، إنه الاسم الأعظم، لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلاّ هو، الملكُ، القدوسُ، السلامُ، المؤمنُ، المهيمن..﴾ فأجرى الأسماء الباقية كلّها مجرى الصفات.

ثم قال: وهو اسم لم يُسمّ به غيره تبارك وتعالى[4].

وقال القرطبي: (الله) هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها،

---

(١) الجمع والتصغير يردّان الأشياء إلى أصولها، فلو كان مشتقاً من (السِّمَة) كما يقول الكوفيون لوجب أن نقول (وسيم) في التصغير و (أوسام) في الجمع، ويكفي هذا لقوّة مذهب البصريين.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في الأدب برقم (٤٨٤٠)، وابن ماجه في النكاح برقم (١٨٩٤)، وأحمد في المسند ٢/٣٥٩، وروي بلفظ (كل كلام لا يبدأ فيه بـ «الحمد لله» فهو أجذم)، وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٥/٦٨٤.

(٣) تفسير القرطبي ١/٩٩، وانظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١/٨٣.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٢٠.

وهو اسم للموجود الحق، الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إلَه إلاّ هو سبحانه[1].

واسم الجلالة (الله) علم مرتجل لا يطلق إلاّ على المعبود بحق، وهذا عند أكثر العلماء كما قال أبو حيان، وقيل: إنه مشتق[2].

قال ابن الجوزي: «اختلف العلماء في اسم الله الذي هو (الله) فقال قوم: إنه مشتق، وقال آخرون: إنه علم ليس بمشتق، ونقل عن الخليل روايتان: إحداهما أنه ليس بمشتق، والثانية أنه مشتق. واشتقاقه من الإلاهة بمعنى العبادة، والتألـه: التعبّد، قال رؤبة:

لله درّ الغانيات المدّه سبّحن واسترجعن من تألهي

وقيل مشتق من الوَلَه: لأن قلوب العباد تُولَه نحوه، وتتعلق به جل وعلا»[3].

والصحيح: أن لفظ (الله) غير مشتق، وأنه اسم علم على الذات المقدسة تبارك وتعالى، لا يشاركه فيه غيره، فلم يتسمّ به غيره، ولذلك لا يُثنّى، ولا يُجْمع[4].

الرحمن الرحيم: اسمان من أسمائه تبارك وتعالى، مشتقان من الرحمة.

وقيل: لا اشتقاق لهما لأنهما من الأسماء المختصة به سبحانه، وسيأتي تفصيل معناهما في سورة الفاتحة.

---

(١) تفسير القرطبي ١/١٠٢.
(٢) البحر المحيط لأبي حيان ١/١٤.
(٣) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١/٨ بتصرف.
(٤) انظر البحر المحيط لأبي حيان ١/١٤، والقرطبي ١/١٠٢.

obeikandi.com

معنى البسملة

معنى البسملة: البسملة هي قول القائل: (بسم الله الرحمن الرحيم) ومعناها: «أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كلّ شيء، مستعيناً به جلّ وعلا في جميع أموري، طالباً العون منه، فإنه القادر على كل شيء.

قال ابن جرير الطبري: (إن الله تعالى ذكره، وتقدست أسماؤه، أدّب نبيّه محمداً بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى، أمام جميع أفعاله، وجعل ذلك لجميع خلقه سنّةً يستنّون بها، وسبيلاً يتّبعونه عليها، فيه افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم، وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل (بسم الله) على ما بطن من مراده الذي هو محذوف. فقول القائل: (بسم الله الرحمن الرحيم) إذا افتتح تالياً سورة ينبىء عن أنّ مراده بذلك: أقرأ بسم الله، وكذلك قوله: (بسم الله) عند نهوضه للقيام، أو عند قعوده، وسائر أفعاله ينبىء عن معنى مراده بقوله: (بسم الله) وأنه أراد: أقوم بسم الله، وأقعد بسم الله، وكذا سائر الأفعال)[1].

* * *

(١) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري ١/٥٢.

obeikandl.com

فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾

التحليل اللفظي

الحمد لله: الحمد هو الثناء بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل.

قال القرطبي: الحمد في كلام العرب معناه: الثناء الكامل، والألف واللام لاستغراق الجنس، فهو ـ سبحانه ـ يستحق الحمد بأجمعه، والثناء المطلق. والحمد نقيض الذم، وهو أعم من الشكر، لأن الشكر يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد، تقول: حمدت الرجل على شجاعته، وعلى علمه، وتقول: شكرته على إحسانه. والحمد يكون باللسان، وأمّا الشكر فيكون بالقلب، واللسان، والجوارح قال الشاعر:

أفادتكمُ النَّعْماءُ منِّي ثَلاثَةً: يَدِي، ولساني، والضَّميرَ المحجَّبا

وذهب الطبري إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء لأنك تقول: الحمد لله شكراً.

قال القرطبي: وما ذهب إليه الطبري ليس بمرضي، لأن الحمد ثناء

على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان، والشكرُ ثناءٌ على الممدوح بما أولى من الإحسان، وعلى هذا يكون (الحمد) أعمّ من الشكر)[1].

ربّ العالمين: الربّ في اللغة: مصدر بمعنى التربية، وهي إصلاح شؤون الغير، ورعاية أمره، قال الهروي: يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه: قد ربّه، ومنه سمّي (الربانيون) لقيامهم بالكتب[2].

وفي الصّحاح: ربَّ فلانٌ ولدَه يربُّه تربية، أي: ربّاه، والمربُّون: جمع المربّي.

والربّ: مشتقٌّ من التربية، فهو سبحانه وتعالى مدبّرٌ لخلقه ومربّيهم، ويطلق الربّ على معان وهي: «المَالكُ، والمصلحُ، والمعبودُ، والسيِّدُ المطاع» تقول: هذا ربّ الإبل، وربّ الدار، أي: مالكها، ولا يقال في غير الله إلا بالإضافة، ففي الحديث الشريف، (لا يقل أحدُكم: أطعمْ ربَّكَ، وضّىءْ ربَّكَ، ولا يقل أحدكم ربّي، وليقلْ سيّدي ومولاي)[4].

والربّ: **المعبود** ومنه قول الشاعر:

أَرَبٌّ يبولُ الثُّعلبانُ برأسِهِ لقد ذَلَّ من بالتْ عليه الثَّعالبُ[5]

والربّ: **السيّد المطاع** ومنه قوله تعالى: ﴿فيسقي ربّه خمراً﴾، أي: سيّده.

والربّ: **المصلح** ومنه قول الشاعر:

---

(١) انظر لسان العرب مادة (حَمِد)، وزاد المسير لابن الجوزي ١/١١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/١٣٣.

(٣) تفسير القرطبي ١/١٣٧.

(٤) رواه الشيخان عن أبي هريرة، البخاري ٥/١٢٩، ومسلم برقم (٢٢٤٩)، وأبو داود برقم (٤٩٧٥).

(٥) تفسير القرطبي ١/١٣٧، وقد قاله أحد الأعراب حين شاهد الثعلب يبول على الصنم الذي كان يعبده، فكسّره وتاب عن عبادة الأصنام.

يَـرُبُّ الذي يـأتي من الخيرِ إنَّـهُ إذا سُئِلَ المعروفَ زَادَ وتَمَّمَـا[1]

العـالمين: جمـع عالَم: والعَـالَمُ: اسمُ جنس لا واحـد لـه من لفـظه، كـالـرهط، والأنام.

قال أبو السعود: العالَم: اسم لمـا يُعلم بـه كالخـاتم، والقالب، غلب فيما يُعلم بـه الصانـع تبارك وتعالى من المصنوعات[2].

قال ابن الجوزي: «العالَمُ عند أهـل العربيـة: اسم للخلق من مبدئهم إلى منتهاهم، فأمّا أهل النظر، فالعالَم عندهم: اسمٌ يقـع على الكون الكلِّي المُحْـدَثِ من فَلَكٍ، وسمـاءٍ، وأرضٍ، وما بين ذلـك، وفي اشتقـاق العـالَم قولان:

أحدهما: أنه من العِلْمِ، وهو يقوِّي قول أهل اللغة.

والثاني: أنه من العلامة، وهو يقوِّي قول أهل النظر[3].

فكلُّ ما في هذا الكون دالّ على وجود الصانـع، المدبّر، الحكيم كمـا قال الشاعر:

فيـا عجبـاً كيف يُعْـصى الإلـه أم كيف يَجْحـده الجـاحـد؟
ولله فـي كـل تـحـريـكـة وتـسـكـيـنـةٍ أبـداً شـاهـد
وفـي كـل شـيء لـه آيـةٌ تـدلّ عـلى أنّـه واحـد

قـال ابـن عبـاس: ﴿ربِّ العـالمين﴾ أي: ربّ الإنس، والجـنّ، والملائكة»[4].

وقـال الفرّاء وأبـو عبيدة: العـالَمُ عبارة عمن يعقـل، وهم أربعـة أمم:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١/١١.
(٢) تفسير أبي السعود ١/١١٧.
(٣) زاد المسير لابن الجوزي ١/١٢.
(٤) البحر المحيط لأبي حيان ١/١٨.

obeikandl.com

(الإنس، والجنّ، والملائكة، والشياطين) ولا يقال للبهائم: عالَم لأن هذا الجمع جمع من يعقل خاصةً، قال الأعشى:

«ما إن سمعت بمثلهم في العالمين»[1].

وقال بعض العلماء: كلّ صنف من أصناف الخلائق عالمٌ، فالإنس عالم، والجنّ عالم، والملائكة عالم، والطير عالم، والنبات عالم، والجماد عالم... إلخ، فقيل: ﴿ربّ العالمين﴾ ليشمل جميع هذه الأصناف من العوالم.

الرحمن الرحيم: اسمان من أسمائه تعالى مشتقان من الرحمة، ومعنى الرحمن: المنعم بجلائل النعم، ومعنى الرحيم: المنعم بدقائقها[2].

ولفظ (الرحمن) مبنيّ على المبالغة، ومعناه: ذو الرحمة التي لا نظير له فيها، لأن بناء (فعلان) في كلامهم للمبالغة، فإنهم يقولون للشديد الامتلاء: ملآن، وللشديد الشبعَ: شبعان.

قال الخطّابي: فـ (الرحمن) ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم، وعمّت المؤمن والكافر.

و (الرحيم) خاص للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾.

ولا يجوز إطلاق اسم (الرحمن) على غير الله تعالى لأنه مختص به جل وعلا، بخلاف الرحيم فإنه يطلق على المخلوق أيضاً قال تعالى: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

قال القرطبي: «وأكثرُ العلماء على أن الرحمن مختصّ بالله عز وجل، لا يجوز أن يسمّى به غيره، ألا تراه قال: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن)

---

(١) تفسير القرطبي ١/١٣٨.

(٢) زاد المسير ١/٩، والألوسي ١/٥٩، والقرطبي ١/١٠٥.

obeikandl.com

فعادلَ الاسم الذي لا يَشْركه فيه غيره: (أجعلنا من دون الرحمن آلهةً يُعبدون) فأخبر أن الرحمن هو المستحق للعبادة جلّ وعزّ، وقد تجاسر (مسيلمة الكذاب) لعنه الله فتسمى بـ (رحمان اليمامة) ولم يتسمّ به حتى قرع مسامعَه نعت الكذّاب، فألزمه الله ذلك حتى صار هذا الوصف لمسيلمة عَلَماً يُعرف به»[1].

يوم الدين: يوم الجزاء والحساب، أي: أنه سبحانه المتصرّف في يوم الدين، تصرّف المالك في ملكه، والدينُ في اللغة: الجزاءُ، ومنه قوله عليه السلام: (إفعل ما شئت كما تدين تدان)، أي: كما تفعل تجزى.

قال في اللسان: والدينُ: الجزاء والمكافأة، ويومُ الدين: يوم الجزاء، وقوله تعالى: ﴿أئنّا لمدينون﴾، أي: مجزيّون محاسبون، ومنه الديّان في صفة الله عز وجل[2] قال لبيد:

حصادك يوماً ما زرعتَ وإنما: يُدان الفتى يوماً كما هو دائن[3].

إيّاك نعبد: نعبُد: نذلّ، ونخشع ونستكين، لأن العبودية معناها: الذلّة والاستكانةُ، مأخوذ من قولهم: طريق معبّد، أي: مذلّل وطئته الأقدام، وذلّلته بكثرة الوطء، حتى أصبح ممهداً.

قال الزمخشري: العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه ثوبٌ ذو عَبْدة إذا كان في غاية الصفاقة وقوة النسج، ولذلك لم تستعمل إلّا في الخضوع لله تعالى، لأنه مولي أعظم النعم، فكان حقيقاً بأقصى غاية الخضوع[4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/١٠٦.
(٢) اللسان مادة (دين)، وانظر تاج العروس، والقاموس المحيط.
(٣) تفسير القرطبي ١/١٤٣.
(٤) الكشاف للزمخشري ١/٢٤.

والمعنى: لـك اللهمّ نذل ونخضع، ونخصـك بالعبـادة لأنك المستحقّ لكل تعظيم وإجلال، ولا نعبد أحداً سواك.

وإياك نستعين: الاستعانـة: طلب العـون، قـال الفـراء: أعنتـه إعـانـةً، واستعنتهُ واستعنت بـه، وفي الـدعاء: ربّ أعنّي ولا تُعِنّ عليّ، ورجـل معـوان: كثيـر الإعانة للناس[1] وفي حديث ابن عباس: (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله).

والمعنى: إيّـاك ربنا نستعين على طـاعتك وعبـادتك في أمـورنا كلهـا، فـلا يملك القدرة على عـوننا أحـد سـواك، وإذا كـان من يكفـر بـك يستعين بسواك، فنحن لا نستعين إلا بك.

إهدنا: فعل دعاء ومعناه: دلّنا على الصـراط المستقيم، وأرشدنـا إليه، وأرنـا طريق هدايتك الموصلة إلى أُنسك وقُربك[2].

والهداية في اللغـة تأتي بمعنى الـدلالة كقـوله تعـالى: ﴿فأمّـا ثمودُ فهـديناهم فـاستحبّـوا العمى على الهُـدى﴾ وتـأتي بمعنى الإرشـاد وتمكين الإيمـان في القلب كما قـال تعالى: ﴿إنّـك لا تهـدي من أحببتَ، ولكنّ الله يهدي من يشاء..﴾

فـالرسـول ﷺ هادٍ بمعنى أنـه دالّ على الله (وإنك لتهـدي إلى صـراط مستقيم) ولكنـه لا يضـع الإيمـان في قلب الإنسـان. وفعـل هـدى يتعـدى بـ (إلى) وبـ (اللام) كقوله تعالى: ﴿فـاهدوهم إلى صـراط الجحيم﴾ وقولـه: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ وقد يتعدّى بنفسه كما هنا (إهدنا الصراط).

الصـراط المستقيم: الصّـراط: الـطريقُ، وأصله بـالسين (السّـراط) من الاسـتراط بمعنى الابتلاع، سمّي بذلك لأنّ الطريق كأنه يبتلـع السالك.

---

(١) لسان العرب مادة (عون).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/١٤٦.

قال الجوهري: الصّراط، والسّراط، والزّراط: الطريق قال الشاعر:

«وأحملهم على وَضِح الصّراط»[1]. . أي: على وضح الطريق.

قال القرطبي: أصلُ الصراط في كلام العرب: الطريق، قال الشاعر:

شحنّا أرضهم بالخيل حتّى تركناهم أذلّ من الصراط[2]

والعرب تستعير (الصراط) لكل قولٍ أو عملٍ وصف باستقامةٍ أو اعوجاج، والمراد به هنا ملّة الإسلام.

المستقيم: الذي لا عوج فيه ولا انحراف، ومنه قوله تعالى: ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه. .﴾ وكلّ ما ليس فيه اعوجاج يسمّى مستقيماً.

ومعنى الآية: ثبّتنا يا ألله على الإيمان، ووفقنا لصالح الأعمال، واجعلنا ممن سلك طريق الإسلام، الموصل إلى جنّات النعيم.

أنعمت عليهم: النعمةُ: لينُ العيش ورَغَدُه، تقول: أنعمتُ عينَه، أي: سررتها، وأنعمتُ عليه بالغت في التفضيل عليه، والأصل فيه أن يتعدّى بنفسه تقول (أنعمتُه) أي جعلته صاحب نعمة، إلّا أنّه لمّا ضُمّن معنى التفضل عليه عدّي بعلى (أنعمتَ عليهم)[3].

قال ابن عباس: هم النبيّون، والصدّيقون، والشهداء، والصالحون، وإلى هذا ذهب جمهور المفسّرين، وانتزعوا ذلك من قوله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعمَ اللّهُ عليهم من النبيّين والصِدِّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً﴾.

المغضوب عليهم: هم اليهود لقوله تعالى فيهم: ﴿وباءوا بغضبٍ من الله﴾، وقوله تعالى: ﴿من لَعَنَه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير. . .﴾.

---

(١) لسان العرب مادة (صرط)، وانظر القاموس المحيط، والصحاح.

(٢) البيت لعامر بن الطفيل، وانظر تفسير القرطبي ١/١٤٧.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ١/٢٦.

الضالين: الضلّال في كلام العرب هو الذهاب عن سَنَنَ القصد، وطريق الحق، والانحراف عن النهج القويم، ومنه قولهم: ضلّ اللبن في الماء أي غاب، قال تعالى: ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الأرض...﴾، أي: غبنا بالموت فيها وصرنا تراباً، وقال الشاعر:

ألم تسأل فتخبرْك الديارُ عن الحيّ المضلّل أين ساروا

والمراد بالضالين (النّصارى) لقوله تعالى فيهم: ﴿قَدْ ضَلّوا من قبلُ وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل﴾.

وقال بعض المفسّرين: الأولى أن يُحمل (المغضوبُ عليهم) على كلّ من أخطأ في الأعمال الظاهرة وهم الفُساق، ويُحمل (الضالّون) على كل من أخطأ في الاعتقاد، لأنّ اللفظ عامٌ، والتقييد خلاف الأصل، والمنكرون للصانع والمشركون أخبثُ ديناً من اليهود والنّصارى، فكان الاحتراز عن دينهم أولى، وهذا اختيار الإمام (الفخر).

وقد ردّه (الألوسي) لأن تفسير المغضوب عليهم والضالين بِـ (اليهود والنصارى) جاء في الحديث الصحيح المأثور فلا يُعتد بخلافه[2].

وقال القرطبي: «جمهور المفسّرين أن المغضوب عليهم اليهود، والضالين النصارى، وجاء ذلك مفسّراً عن النبي ﷺ في حديث (عديّ بن حاتم) وقصة إسلامه[3].

وقال أبو حيان: وإذا صحّ هذا عن رسول الله ﷺ وجب المصير إليه.

أقول: ما ذكره (الفخر الرازي) ليس فيه ردّ للمأثور، بل إنّه عمّم

---

(١) انظر القرطبي ١/١٤، والألوسي ١/٩٤، وابن الجوزي ١/١٥، والفخر الرازي ١/٢٠٣.

(٢) انظر الفخر الرازي ١/٢٠٤، والألوسي ١/٩٦، وزاد المسير ١/١٦، والبحر المحيط ١/٣٠.

(٣) تفسير القرطبي ١/١٤٩، وانظر البحر المحيط لأبي حيان ١/٣٠، وتفسير ابن الجوزي ١/١٦١.

الحكم فجعله شاملاً لليهود والنصارى ولجميع من انحرف عن دين الله، وضلَّ عن شرعه القويم، حيث يدخل في اللفظ جميع الكفّار والمنافقين، وإليك نصّ كلام الإمام الفخر:

قال رحمه الله: «ويحتمل أن يقال المغضوب عليهم هم الكفّار، والضّالون هم المنافقون، وذلك لأنّه تعالى بدأ بذكر المؤمنين والثناء عليهم في خمس آياتٍ من أوّل البقرة، ثمّ أتبعه بذكر الكفار، ثمّ أتبعه بذكر المنافقين، فكذا هنا بدأ بذكر المؤمنين وهو قوله (أنعمت عليهم) ثم أعقبه بذكر الكفار وهو قوله (غير المغضوب عليهم) ثمّ أتبعه بذكر المنافقين وهو قوله: (ولا الضّالّين)[1]».

آمين: كلمة دعاء وليست من القرآن الكريم إجماعاً، بدليل أنها لا تكتب في المصحف الشريف، ومعناها: استجب دعاءنا يا رب.

قال الألوسي: «ويُسنّ بعد الختام أن يقول القارىء (آمين) لحديث أبي ميسرة «أنَّ جبريل أقرأ النبي ﷺ فاتحة الكتاب، فلما قال: (ولا الضالّين)، قال له: قل: آمين، فقال آمين[2].

قال ابن الأنباري: «وأمّا (آمين) فدعاء، وليس من القرآن، وهو اسم من أسماء الأفعال ومعناه: اللهمّ استجب، وفيه لغتان: القصرُ (أمين) والمدُّ (آمين) فالأول على وزن (فعيل) والثاني على وزن (فاعِل) قال الشاعر:

يا ربِّ لا تسلُبَنّي حبها أبداً ... ويرحمُ اللّهُ عبداً قال آمينا[3]

وقال ابن زيدون:

غيظ العِدَى من تساقينا الهَوَى فَدَعَوْا ... بأن نَغَصَّ فقال الدهر: آمينا

---

(1) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي ١/٢٠٤.

(2) روح المعاني للألوسي ١/٩٧.

(3) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وانظر لسان العرب مادة (أمن)، والبيان في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري ١/٤١.

المعنى الإجمالي

علّمنا الله ـ تقدّست أسماؤه ـ كيف ينبغي أن نحمده ونقدّسه، ونثني عليه بما هو أهله، فقال ما معناه: يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي، فقولوا: الحمد لله ربِّ العالمين، اشكروني على إحساني وجميلي إليكم، فأنا الله ذو العظمة والمجد والسؤدد، المتفرد بالخلق والإيجاد، ربّ الإنس والجن والملائكة، وربّ السموات والأرضين، وأنا الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمّ فضله جميع الأنام، فالثناء والشكر لله رب العالمين، دون ما يعبد من دونه، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق، وسلامة الجوارح، وهداية الخلق إلى سعادة الدنيا والآخرة، فهو السيِّد الذي لا يبلغ سؤدده أحد، والمصلح أمر عباده بما أودع في هذا العالم من نظام، يرجع كلّه بالمصلحة على عالم الإنسان والنبات والحيوان، فمن شمسٍ لولاها ما وجدت حياة ولا ضياء، ومن غذاء به قوام البشر، ومياه بها حياة النبات والحيوان، وأنا المالك للجزاء والحساب، المتصرف في يوم الدين، تصرّف المالك في ملكه، فخصوني بالعبادة دون سواي، وقولوا لك اللهمّ نذلّ ونخضع، ونستكين ونخشع، ونخصّك بالعبادة، ولا نعبد أحداً سواك، وإيّاك ربّنا نستعين على طاعتك ومرضاتك، فإنك المستحقّ لكل إجلال وتعظيم، ولا يملك القدرة على عوننا أحد سواك.

فثبتنا يا الله على الإسلام دينك الحق، الذي بعثت به أنبياءك ورسلك، وأرسلت به خاتم المرسلين، وثبتنا على الإيمان، واجعلنا ممّن سلك طريق المقربين، طريق النبيّين، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، ولا تجعلنا يا ألله من الحائرين عن قصد السبيل، السالكين غير المنهج القويم، من الذين ضلّوا عن شريعتك القدسية، وكفروا بآياتك ورسلك وأنبيائك، فاستحقوا اللعنة والغضب إلى يوم الدين... اللهمّ آمين.

معاني الفاتحة في ظلال القرآن

يقول سيد قطب رحمه الله في تفسيره الظلال ما نصه:

«يردّد المسلم هذه السورة القصيرة، ذات الآيات السبع، سبع عشر مرة في كل يوم وليلة على الحدالأدنى، وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن، وإلى غير حد إذا هو رغب في أن يقف بين يدي ربه متنفلاً غير الفرائض والسنن، ولا تصح صلاة بغير هذه السورة لما ورد في الصحيحين (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب).

إن في هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجهات ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة.

تبدأ السورة بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ والبدء باسم الله هو الأدب الذي أوحى الله لنبيّه ﷺ في أول ما نزل من القرآن باتفاق، وهو قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك﴾ وهو الذي يتفق مع قاعدة التصور الإسلامي الكبرى من أنَّ الله هو (الأول، والآخر، والظاهر، والباطن) فهو سبحانه الموجود الحق الذي يستمد منه كل موجودٍ وجودَه، ويبدأ منه كل مبدوء بدأه، فباسمه إذن يكون كل ابتداء، وباسمه إذن تكون كل حركة وكل اتجاه.

وإذا كان البدء باسم الله، وما ينطوي عليه من توحيد لله، وأدب معه، يمثّل الكلّيّة الأولى في التصور الإسلامي، فإن استغراق معاني الرحمة في صفتي ﴿الرحمن الرحيم﴾ يمثّل الكلّيّة الثانية في هذا التصور، ويقرّر حقيقة العلاقة بين الله والعباد وعقب البدء بـ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يجيء التوجه إلى الله بالحمد، ووصفُه بالربوبية المطلقة، يمثّل شعور المؤمن الذي يستجيشه مجرد ذكره لله، والحمد هو الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن، فإن وجوده ابتداءً ليس إلاَّ فيضاً من فيوضات النعمة الإلهية، وفي كل لمحة، وفي كل لحظة، وفي كل خطوة تتوالى آلاء لله، وتغمر الخلائق كلها، وبخاصة هذا الإنسان.

والربوبية المطلقة: هي مفرق الطريق بين وضوح التوحيد الكامل الشامل، والغَبَش الذي ينشأ من عدم وضوح هذه الحقيقة، وشمولُ هذه الربوبية للعالمين جميعاً، هي مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة، لتتّجه العوالم كلها إلى ربٍّ واحد، تقرّ له بالسيادة المطلقة، وتنفض عن كاهلها زحمة الأرباب المتفرقة.

وتبدو العقيدة الإسلامية في كمالها وتناسقها رحمة.. رحمةً حقيقية للقلب والعقل، رحمة بما فيها من جمال وبساطة، ووضوح وتناسق، وقرب وأنس، وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق.

ثم تأتي هذه الصفة ﴿الرحمن الرحيم﴾ التي تستغرق كلّ معاني الرحمة، وحالاتها ومجالاتها، تتكرر هنا في صلب السورة في آية مستقلة لتؤكد تلك الربوبية الشاملة، ولتثبت قوائم الصلة الدائمة بين الربّ ومربوبيه، وبين الخالق ومخلوقاته.. إنها صلة الرحمة والرعاية، التي تقوم على الطمأنينة وتنبض بالمودة، فالحمد هو الاستجابة الفطرية للرحمة الندية.

والتعبير بقوله ﴿مالك يوم الدين﴾ يمثّل الكليّة الضخمة، العميقة التأثير، كلية الاعتقاد بالآخرة. والاعتقادُ بيوم الدين كلية مِنْ كليّات العقيدة الإسلامية ذات قيمة هامة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالَم آخر، وهو مفرق الطريق بين الإنسانية في حقيقتها العليا، والصور المشوّهة المنحرفة التي لم يُقدّر لها الكمال، وما تستقيم الحياة البشرية على منهج الله الرفيع، ما لم تتحقّق هذه الكلية في تصور البشر، وما لم يثق الفرد المحدود بأنّ له حياة أخرى تستحق أن يجاهد لها وأن يضحّي في سبيلها. وما يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور، ولا خُلُق، ولا سلوك، ولا عمل، فهما صنفان مختلفان من الخَلْق، وطبيعتان متميّزتان، لا تلتقيان في الأرض في عمل، ولا تلتقيان في الآخرة في جزاء.. وهذا هو مفرق الطريق.

وقوله: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ هذه هي الكلية الاعتقادية التي تنشأ عن الكليات السابقة في السورة، فلا عبادة إلّا لله، ولا استعانة إلّا باللّهِ.

وهنا كذلك مفرق طريق . . مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية، وبين العبودية المطلقة للعبيد، وهي تعلن ميلاد التحرر البشري، الكامل الشامل.

ولقد درج «الغربيون» على التعبير عن استخدام قوى الطبيعة بقولهم: «قهر الطبيعة» ولهذا التعبير دلالته الظاهرة على نظرة الجاهلية، المقطوعة الصلة باللَّهِ، وبروح الكون المستجيب لله، فأمَّا المسلم الموصول القلب بربه الرحمن الرحيم، الموصول الروح بروح هذا الوجود المسبِّحة لله رب العالمين، فيؤمن بأن هناك علاقة أخرى، غير علاقة القهر والجفوة، إنه يعتقد بأن الله هو مبدع هذه القُوى جميعاً، خلقها كلها وفق ناموس واحد، وسخَّرها للإنسان ابتداءً، ويسّر له كشف أسرارها، ومعرفة قوانينها، وأنّ على الإنسان أن يشكر الله كلّما هيَّأ له أن يظفر بمعونة من إحداها، فاللَّه هو الذي يسخِّرها وليس هو الذي يقهرها ﴿وسخَّر لكم ما في الأرض جميعاً منه﴾.

وبعد تقرير تلك الكليّات الأساسية في التصور الإسلامي، يبدأ في التطبيق العملي ﴿إهدنا الصِّراطَ المستقيمَ. صِراطَ الذين أنعمتَ عليهمْ، غير المغضوبِ عليهمْ ولا الضالّين﴾. فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته، وهو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين، وهذا الأمر أعظم ما يطلبه المؤمن من ربه، فالهداية فطرة الإنسان إلى ناموس الله، الذي ينسّق بين حركة الإنسان، وحركة الوجود كله في الاتجاه إلى الله رب العالمين، ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ فهو طريق الذين قسم لهم نعمته، لا طريق الذين غضب عليهم . . إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين.

ولعلّ ذلك يكشف لنا عن سرٍّ من أسرار اختيار السورة، ليردِّدها المؤمن سبع عشرة مرة في كل يوم وليلة، أو ما شاء الله أن يردّدها، كلّما قام يدعوه في الصلاة(١).

* * *

(١) نقلاً عن تفسير «في ظلال القرآن» لسيد قطب، بشيء من الاختصار.

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى: أمر الباري ـ جل وعلا ـ بالتعوذ عند قراءة القرآن ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾.

قال جعفر الصادق: (إنه لا بدّ قبل القراءة من التعوذ، وأما سائر الطاعات فإنه لا يتعوذ فيها، والحكمة فيه أن العبد قد ينجس لسانه بالكذب والغيبة، والنميمة، فأمر الله تعالى العبد بالتعوذ ليصير لسانه طاهراً، فيقرأ بلسان طاهر، كلاماً أنزل من رب طيب طاهر)[1].

اللطيفة الثانية: المشهور عند أهل اللغة أن (البسملة) هي قول القائل: (بسم الله الرحمن الرحيم)، وقد اشتهر هذا في الشعر والنثر، قال الشاعر:

لقد بسمَلَتْ ليلَى غداةَ لقيتُها ... فيا حبّذا ذاك الحبيبُ المبسمِلُ[2]

وفي افتتاح القرآن الكريم بهذه الآية إرشادٌ لنا أن نستفتح بها كلّ أفعالنا وأقوالنا، وقد جاء في الحديث الشريف (كلُّ أمرٍ ذي بالٍ، لا يُبْدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فهو أبترُ)[3]، أي: ناقص.

فإن قيل: لماذا نقول بسم الله، ولا نقول بالله؟

فالجواب كما قال العلّامة أبو السعود: هو التفريق بين (اليمين) و(التيمّن) يعني التبرك، فقول السائل: باللّهِ يحتمل القسم ويحتمل التبرك. فذكر الاسم يدل على إرادة (التبرك) والاستعانة بذكره تعالى، ويقطع احتمال إرادة القسم[4].

اللطيفة الثالثة: يرى بعض العلماء أنّ الاسم هو عين المسمّى، فقول القائل:

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١/٧٥.

(٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وانظر القرطبي ١/٩٧.

(٣) رواه أبو داود في الأدب برقم (٤٨٤٠)، وابن ماجه في النكاح برقم (١٨٩٤)، وأحمد في المسند ٢/٣٥٩ وقد تقدم تخريجه في صفحة ١٨.

(٤) انظر تفسير أبي السعود ١/٧٤.

(بسم الله) كقوله (باللّهِ) وأن لفظ الاسم مقحم كما في قول (لبيد بن ربيعة):

إلى الحول ثمّ اسم السلام عليكما ... ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر

أي ثمّ السلام عليكما، وقد ردّ هذا شيخ المفسرين ابن الطبري.

قال ابن جرير الطبري: لو جاز ذلك وصحّ تأويله فيه على ما تأوّل، لجاز أن يُقال: رأيت اسم زيد، وأكلتُ اسم الطعام، وشربت اسم الدواء، وفي إجماع العرب على إحالة ذلك ما ينبيء عن فساد تأويله، ويقال لهم: أتستجيزون في العربية أن يُقال: أكلتُ اسم العسل، يعني أكلتُ العسل[(١)]؟

أقول: الصحيح ما قاله المحققون من المفسّرين إنّ ذلك للتفريق بين اليمين والتبرك.

قال العلامة أبو السعود: وإنما قال (بسم الله) ولم يقل (باللّهِ) وذلك للتفريق بين اليمين والتيمّن يعني (التبرُّك) أو لتحقيق ما هو المقصود بالاستعانة، فذكر الاسم لينقطع احتمال إرادة المسمّى، ويتعيّن حمل الباء على الاستعانة أو التبرك[(٢)].

اللطيفة الرابعة: الفرق بين لفظ (الله) ولفظ (الإلَه) أن الأول اسم علم للذات المقدّسة لا يشاركه فيه غيره، ومعناه المعبود بحق، والثاني يطلق على الله تعالى وعلى غيره، وهو مشتق من (ألَه) ومعناه المعبود، سواءً كان بحق أو غير حق، فالأصنام التي كان يعبدها العرب تسمّى (آلهة) جمع (إلَه) لأنها عُبدت بباطل من دون الله، وما كان أحد يسمى الصنم (الله) بل كان العربي في الجاهلية إذا سئل: من خلقك؟ أو من خلق السموات والأرض؟ يقول: الله، وفيهم يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾[(٣)].

اللطيفة الخامسة: في قولنا (بسم الله الرحمن الرحيم) فوائد جليلة، منها

---

(١) تفسير الطبري ١/٦٢.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ١/٧٤.

(٣) روح المعاني للوسي ١/٧٧.

التبرك بذكر اسم الله تعالى، والتعظيم لله عزّ وجل، وطرد للشيطان لأنه يهرب من ذكر اسم الله، وفيها إظهار لمخالفة المشركين، الذين يفتتحون أمورهم بذكر الأصنام أو غيرها من المخلوقين الذين كانوا يعبدونهم، وفيها أمان للخائف ودلالة على انقطاع قائلها إلى الله تعالى، وفيها إقرار بالألوهية، واعتراف بالنعمة، واستعانة بالله تعالى، وفيها اسمان من أسمائه تعالى المخصوصة به وهما (الله) و (الرحمن)[1].

اللطيفة السادسة: الألف واللام في (الحمد) لاستغراق الجنس، والمعنى لا يستحق الثناء الكامل، والحمد التام الوافي، إلاّ الله ربّ العالمين، فهو الإله المنعوت بصفات الكمال، المستحق لكل تمجيد وتعظيم وتقديس، والصيغة وردت معرّفة (الحمدُ لله) للإشارة إلى أنّ الحمد له تعالى أمر دائم مستمر، لا حادث متجدّد، فتدبره فإنه دقيق.

اللطيفة السابعة: فائدةُ ذكر (الرحمن الرحيم) عقب لفظ (ربّ العالمين) هي أن لفظ (الربّ) ينبىء عن معنى الكبرياء، والسيادة، والقهر، فربّما توهّم السامع أن هذا الربّ قهّار جبّار لا يرحم العباد فدخل إلى نفسه الفزع، واليأس، والقنوط، لذلك جاءت هذه الجملة لتؤكد أن هذا الرب ــ جلّ وعلا ــ رحمن رحيم، وأن رحمته وسعت كل شيء.

قال أبو حيّان: بدأ أولاً بالوصف بالربوبيّة، فإن كان الرب بمعنى السيِّد، أو بمعنى المالك، أو بمعنى المعبود، كان صفة فعل للموصوف، فناسب ذلك الوصف بالرحمانية والرحيمية، لينبسط أمل العبد في العفو إن زلّ، ويقوى رجاؤه إن هفا[2].

قال ابن القيم: «وأما الجمع بين (الرحمن الرحيم) ففيه معنى بديع،

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ١/١٧.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ١/١٩.

وهو أنّ (الرحمن) دالّ على الصفة القائمة به سبحانه، و(الرحيم) دالّ على تعلقها بالمرحوم، وكأنّ الأول الوصفُ، والثاني الفعلُ، فالأول دالّ على أن الرحمة صفته أي صفة ذات له سبحانه، والثاني: دالّ على أنه يرحم خلقه برحمته أي صفة فعل له سبحانه، فإذا أردتَ فهم هذا فتأمل قوله تعالى ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ ﴿إنّه بهم رؤوف رحيم﴾ ولم يجيء قط الرحمن بهم فعلمت أن (رحمن) هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته».

ثم قال رحمه الله: وهذه النكتة لا تكاد تجدها في كتاب.

ومجمل القول: أنّ معنى (الرحمن) المنعم بجلائل النعم، ومعنى (الرحيم) المنعم بدقائقها.

وقيل: إنهما بمعنى واحد، والثاني لتأكيد الأول وهو رأي الصبّان والجلال، وهو ضعيف فقد قال ابن جرير الطبري: لا توجد في القرآن كلمة زائدة لغير معنى مقصود.

والراجح «ما ذهب إليه ابن القيم وهو أن الوصف الأول دالّ على الرحمة الثابتة له سبحانه، والثاني يدل على تجدّد الأفعال المتعلقة بهذه الصفة والله أعلم.

اللطيفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ فيه التفاوت من الغَيْبة إلى الخطاب، على سبيل التفنن في الكلام، لأنه أدخلُ في استمالة النفوس، واستجلاب القلوب، وهذا (الالتفات) ضرب من ضروب البلاغة، ولو جرى الكلام على الأصل لقال (إيّاه نعبد) فعدل عن ضمير الغائب إلى المخاطب لنكتة (الالتفات) ومثله قوله تعالى: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ ثم قال: ﴿إنّ هذا كان لكم جزاءً﴾ وقد يكون الالتفات من (الخطاب) إلى (الغيبة) كما في قوله تعالى: ﴿هو الذي يسيّركم في البرّ والبحر، حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريحٍ طيبة﴾ فقد كان الكلام مع المخاطبين، ثم جاء بضمير الغيبة على طريق الالتفات.

قال أبو حيان في البحر: (ونظير هذا أن تذكر شخصاً متصفاً بأوصاف جليلة،

مخبراً عنه إخبار الغائب، ويكون ذلك الشخص حاضراً معك، فتقول له: إيَّاك أقصد، فيكون في هذا الخطاب من التلطف على بلوغ المقصود، ما لا يكون في لفظ (إيَّاه))[1].

اللطيفة التاسعة: وردت الصيغة بلفظ الجمع في الجملتين (نعبد) و (نستعين) ولم يقل ﴿إيَّاك أعبد وإيَّاك أستعين﴾ وذلك لنكتةٍ لطيفة، هي اعتراف العبد بقصوره عن الوقوف في باب ملك الملوك جلّ وعلا، وطلبه الاستعانة والهداية مفرداً دون سائر العباد، فكأنه يقول: يا رب أنا عبد حقير، ذليل، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي، بل أنا أنضم إلى سلك الموحِّدين، وأدعوك معهم، فتقبّل دعائي معهم، فنحن جميعاً نعبدك ونستعين بك.

وتقديم المفعول على الفعل (إيَّاك نعبد) و (إيَّاك نستعين) يفيد القصر والتخصيص كما في قوله ﴿وإيَّاي فارهبون﴾ كما يفيد التعظيم والاهتمام به.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: معناه نعبدك ولا نعبد غيرك[2].

قال القرطبي: إن قيل: لم قدّم المفعول (إيَّاك) على الفعل (نعبد)؟ قيل له: اهتماماً، وشأنُ العرب تقديم الأهم، يُذكر أنّ أعرابياً سبَّ آخر فأعرض المسبوب عنه، فقال له السّابّ: إيَّاك أعني، فقال له الآخر: وعنك أُعرض، فقدّما الأهم، وأيضاً لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود، فلا يجوز نعبدك، ونستعينك، ولا نعبد إيَّاك ونستعين إيَّاك، وإنما يتبع لفظ القرآن[3]، قال العجّاج:

إيَّـاكَ أدعُـو فتقبَّـلْ مَلَقي[4] ... واغفـرْ خَـطَايـايَ وكثِّـرْ وَرَقي

وكرّر الاسم لئلا يتوهم إيَّاك نعبد ونستعين غيرك.

---

(١) البحر المحيط ١/٢٤، وانظر القرطبي ١/١٤٥، وتفسير أبي السعود ١/١٤٧.
(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١/١٥٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/١٤٥.
(٤) قال في اللسان: والمَلَقُ: الدعاء والتضرع.

اللطيفة العاشرة: نسبَ النعمة إلى الله عزّ وجل (أنعمتَ عليهم) ولم ينسب الإضلال والغضب فلم يقل: (غضبت عليهم) وأضللتهم، وذلك جارٍ على طريق تعليم الأدب مع الله عزّ وجل، حيث لا ينسب الشرّ إليه (أدباً) وإن كان منه (تقديراً) كما ورد: الخير كلّه بيديك، والشرّ ليس إليك.

فهو كقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضتُ فهو يشفين﴾ فلم يقل: (وإذا أمرضني) أدباً. وكقوله تعالى على لسان مؤمني الجن: ﴿وأنّا لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربّهم رشداً؟﴾ فلم يقولوا: أشرّ أراد الله، فتدبره فإنه دقيق.

الدقائقُ البَيَانيّةُ في سُورةِ الفَاتحة

قال أبو حيّان في تفسيره (البحر المحيط): (وقد انجرّ في غضون تفسير هذه السورة الكريمة من علم البيان فوائد كثيرة لا يهتدي إلى استخراجها إلّا من كان توغّل في فهم لسان العرب، ورُزق الحظّ الوافر من علم الأدب، وكان عالماً بافتنان الكلام، قادراً على إنشاء النثار البديع والنظام، وفي هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع:

النوع الأول: حسنُ الافتتاح وبراعة المطلع، وناهيك حسناً أن يكون مطلعها مفتتحاً باسم الله، والثناء عليه بما هو أهله من الصفات العليّة.

النوع الثاني: المبالغة في الثناء وذلك لعموم (أل) في الحمد المفيد للاستغراق.

النوع الثالث: تلوين الخطاب في قوله (الحمد لله) إذ صيغته الخبر ومعناه الأمر، أي: قولوا: الحمد لله.

النوع الرابع: الاختصاص باللّام التي في (لله) إذ دلّت على أنّ جميع المحامد مختصة به تعالى إذ هو مستحقّ لها جلّ وعلا.

النوع الخامس: الحذف وذلك كحذف (صراط) من قوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ التقدير: غير صراط المغضوب عليهم، وغير صراط الضالين.

النوع السادس: التقديم والتأخير في قوله ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ وكذلك في قوله: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالّين﴾ وقد تقدم الكلام على ذلك.

النوع السابع: التصريح بعد الإبهام وذلك في قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم﴾ حيث فسَّر الصراط.

النوع الثامن: الالتفات وذلك في قوله: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين. اهدنا الصرط المستقيم﴾.

النوع التاسع: طلب الشيء وليس المراد حصوله بل دوامه واستمراره وذلك في قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي ثبتنا عليه.

النوع العاشر: التسجيع المتوازي وهو اتفاق الكلمتين الأخيرتين في الوزن والرّوي وذلك في قوله تعالى: ﴿الرحمن الرحيم... الصراط المستقيم﴾ وقوله ﴿نستعين... ولا الضالّين﴾[1].

وجوه القراءات

أوّلاً: قرأ الجمهور (الحمد لله) بضمّ دال الحمد، وقرأ سفيانُ بن عُيَيْنة (الحمدَ لله) بالنصب، قال ابن الأنباري: ويجوز نصبه على المصدر بتقدير أحمد الله.

قال أبو حيان: وقراءة الرفع أمكنُ في المعنى، ولهذا أجمع عليها السبعة، لأنها تدل على ثبوت الحمد واستقراره لله تعالى، فيكون قد أخبر بأنّ الحمد مستقرّ

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٣١ بتصرف.

obeikandi.com

لله تعالى أي حمدُه وحمدُ غيره[1].

ثانياً: قرأ الجمهور (ربّ العالمين) بكسر الباء وقرأ زيد بن عليّ (ربَّ العالمين) بالنصب على المدح أي أمدح ربّ العالمين، وهي فصيحة لولا خفض الصفات بعدها كما نبّه عليه أبو حيّان وغيره.

قال القرطبي: يجوز الرفع والنصب في (ربّ) فالنصبُ على المدح، والرفع على القطع أي هو ربّ العالمين[2].

ثالثاً: قرأ الجمهور (مَالِكِ يومِ الدِّينِ) على وزن فاعل (مالك) وقرأ ابن كثير وابن عمر وأبو الدرداء (مَلِكَ) بفتح الميم مع كسر اللام.

قال ابن الجوزي: وقراءة (مَلِك) أظهرُ في المدح، لأنّ كلّ مَلِك مالك، وليس كل مالكٍ مَلِكاً[3].

وقال ابن الأنباري: وفي (مالك) خمسُ قراءات وهي: مالك، ومَلِك، ومَلْك، ومليك، وَمَلاَك[4].

رابعاً: قرأ الجمهور (إيَّاك نعبُد) بضم الباء، وقرأ زيد بن علي (نعبِد) بكسر النون، وقرأ الحسن وأبو المتوكل (إيَّاك يُعبَد) بضم الياء وفتح الباء[5].

خامساً: قرأ الجمهور (إهدنا الصراط المستقيم) بالصّاد وهي لغة قريش، وقرأ مجاهد وابن محيصن (السّراط) بالسّين على الأصل.

قال الفرّاء: اللغة الجيّدة بالصاد وهي اللغة الفصحى، وعامة العرب يجعلونها سيناً، فمن قرأ بالسين فعلى أصل الكلمة، ومن قرأ بالصاد فلأنها أخفّ على اللّسان[6].

---

(1) البحر المحيط ١/١٨، وانظر تفسير ابن الجوزي ١/٨١٠

(2) تفسير القرطبي ١/١٣٩، وانظر البيان في غريب إعراب القرآن ١/٣٥.

(3) زاد المسير في علم التفسير ١/١٣.

(4) البيان في غريب إعراب القرآن ١/٣٥.

(5) زاد المسير ١/١٤، والبحر المحيط ١/٢٣.

(6) البحر المحيط ١/٢٥، وزاد المسير ١/١٥.

obeikandi.com

وجـــوه الإعراب

أوّلاً: (بسم الله الرحمن الرحيم) الجار والمجرور في (بسم الله) اختلف فيه النحويون على وجهين:

(أ) مذهب **البصريين** أنه في موضع رفع، لأنه خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: ابتدائي بسم الله.

(ب) مذهب **الكوفيين** أنه في موضع نصب بفعل مقدّر وتقديره: ابتدأتُ بسم الله [1].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿الحمد لله ربّ العالمين﴾ الحمدُ مبتدأ ولفظ الجلالة خبره تقديره: الحمد مستحق لله، و (ربّ العالمين) صفة ومثله (الرحمن الرحيم) و (مالك يوم الدين) كلها صفات لاسم الجلالة.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ اختلف المفسّرون في (إيّاك) فذهب المحقّقون إلى أنه ضمير منفصل منصوب بالفعل بعده وأصله (نعبدك) و (نستعينك) فلما قُدِّمَ الضمير المتصل أصبح ضميراً منفصلاً، والكاف للخطاب ولا موضع لها من الإعراب [2].

وذهب آخرون إلى أنه ضمير مضاف إلى ما بعده، ولا يعلم ضمير أضيف إلى غيره.

قال أبو السعود: وما ادّعاه الخليل من الإضافة، محتجاً عليه بما حكاه عن بعض العرب: إذا بلغ الرجل الستين فإيّاه وإيّا الشوّاب، فممّا لا يعوّل عليه [3]. وذكر (ابن الأنباري) وجوهاً عديدةً ثمّ قال: والذي أختاره الأول، وقد بيّنا ذلك مستوفى في كتابنا الموسوم بـ (الإنصاف في مسائل الخلاف) [4].

---

(١) انظر البيان في غريب إعراب القرآن ١/٣١.
(٢) نفس المرجع السابق والجزء ص ٣٦.
(٣) تفسير أبي السعود ١/١٥٣، وانظر غريب القرآن ١/٣٦.
(٤) انظر الإنصاف مسألة (٩٨) ٢/٤٠٦.

obeikandl.com

رابعاً: قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم...﴾ (إهدنا) فعل دعاء وهو يتعدى إلى مفعولين المفعول الأول هو ضمير الجماعة (نا) في اهدنا، و (الصراط) هو المفعول الثاني، و(المستقيم) صفة للصراط، و (صراط) بدل من الصراط الأول[1].

خامساً: آمين: اسم فعل أمر بمعنى استجب.

الأحكام الشرعية

الحكم الأول: هل البسملة آية من القرآن؟

أجمع العلماء على أن البسملة الواردة في سورة النمل هي جزء من آية في قوله تعالى: ﴿إنّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾، ولكنهم اختلفوا هل هي آية من الفاتحة، ومن أول كل سورة أم لا؟ على أقوال عديدة:

الأول: هي آية من الفاتحة، ومن كل سورة، وهو مذهب الشافعي رحمه الله.

الثاني: ليست آية لا من الفاتحة، ولا من شيء من سور القرآن، وهو مذهب مالك رحمه الله.

الثالث: هي آية تامة من القرآن أُنزلت للفصل بين السور، وليست آية من الفاتحة وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله.

دليل الشافعية:

استدل الشافعية على مذهبهم بعدة أدلة نوجزها فيما يلي:

أولاً: حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين، فاقرءوا «بسم الله الرحمن الرحيم» إنها أمّ القرآن، وأمّ الكتاب، والسبعُ المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم أحدُ آياتها)[2].

---

(١) انظر البيان في إعراب غريب القرآن ١/ ٣٩.

(٢) رواه الدارقطني من حديث عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن أبي بلال عن سعيد بن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

ثانياً: حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة ببسم الله الرحمن الرحيم(١).

ثالثاً: حديث أنس رضي الله عنه أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت قراءته مدّاً. . ثمّ قرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. .﴾(٢).

رابعاً: حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: (بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذْ أغفى إغفاءة، ثمّ رفع رأسه متبسّماً، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: نزلت عليّ آنفاً سورة، فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم. إنّا أعطيناك الكوثر. فصلّ لربّك وانحرْ. إنّ شانئَكَ هو الأبتر)(٣).

قالوا: فهذا الحديث يدل على أن البسملة آية من كل سورة من سور القرآن أيضاً، بدليل أن الرسول ﷺ قرأها في سورة الكوثر.

خامساً: واستدلوا أيضاً بدليل معقول، وهو أن المصحف الإمام كُتبت فيه البسملة في أول الفاتحة، وفي أول كل سورة من سور القرآن، ما عدا سورة (براءة)، وكتبت كذلك في مصاحف الأمصار المنقولة عنه، وتواتر ذلك مع العلم بأنهم كانوا لا يكتبون في المصحف ما ليس من القرآن، وكانوا يتشدّدون في ذلك، حتى إنهم منعوا من كتابة التعشير، ومن أسماء السّور، ومن الإعجام(٤)، وما وُجد من

---

(١) رواه الترمذي عن ابن عباس وقال: ليس إسناده بذاك، أي: ليس بقوي الإسناد.

(٢) أخرجه البخاري ٩ / ٩١ في فضائل القرآن، وأحمد في المسند ١٢٧/٣، وقال الدارقطني: إسناده صحيح.

(٣) الحديث أخرجه مسلم في الصلاة ١/ ٣٠٠، وأحمد في المسند ١٠٢/٣، والترمذي في سننه، وقال الترمذي: حسن صحيح. له تتمة وهي: ثم قال أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: اللّهُ ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربّي عز وجلّ، وهو حوضٌ ترد عليه أمتي يوم القيامة. . . إلخ، وانظر صحيح مسلم.

(٤) الإعجام معناه: التنقيط، والحروف تنقسم إلى قسمين: معجمة، ومهملة؛ فالمعجمة التي لها نقط، والمهملة ما ليس لها نقط.

ذلك أخيراً فقد كتب بغير خطّ المصحف، وبمدادٍ غير المداد، حفظاً للقرآن أن يتسرّب إليه ما ليس منه، فلما وجدت البسملة في سورة الفاتحة، وفي أوائل السور دلّ على أنها آية من كل سورة من سور القرآن.

دليل المالكية:

واستدل المالكية على أن البسملة ليست آية من الفاتحة، ولا من القرآن وإنما هي للتبرك بأدلة نوجزها فيما يلي:

أولاً: حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله ربّ العالمين)(١).

ثانياً: حديث أنس كما في الصحيحين قال: (صلّيتُ خلف النبي ﷺ وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين).

وفي رواية لمسلم: (لا يَذْكُرون «بسم الله الرحمن الرحيم» لا في أول قراءةٍ، ولا في آخرها)(٢).

ثالثاً: ومن الدليل أنها ليست آية من الفاتحة حديث أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عزّ وجل:

(قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل.

فإذا قال العبد: الحمد لله ربّ العالمين. قال الله تعالى: حمدني عبدي.

وإذا قال العبد: الرحمن الرحيم. قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي.

وإذا قال العبد: مالك يوم الدين. قال الله تعالى: مجّدني عبدي ــ وقال مرة فوّض إليّ عبدي ــ.

---

(١) الحديث رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها في كتاب الصلاة ١/٣٥٧ رقم (٤٩٨).

(٢) الحديث رواه البخاري عن أنس بن مالك ٢/١٨٨ في صفة الصلاة، ومسلم ١/٢٩٩، وأبو داود برقم (٧٨٢)، والترمذي برقم(٢٤٦)، وحديث مسلم صريح في عدم قراءة البسملة لقول أنس: لا يذكرون «بسم الله الرحمن الرحيم» لا في أوّل قراءةٍ ولا في آخرها.

فإذا قال: إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل.

فإذا قال: إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[1].

قالوا: فقوله سبحانه: ﴿قسمت الصلاة﴾ يريد الفاتحة، وسمّاها صلاة لأن الصلاة لا تصح إلا بها، فلو كانت البسملة آية من الفاتحة لذكرت في الحديث القدسي.

رابعاً: لو كانت البسملة من الفاتحة لكان هناك تكرار في (الرحمن الرحيم) في وصفين وأصبحت السورة كالآتي: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم﴾ وذلك مخلّ ببلاغة النظم الجليل.

خامساً: كتابتها في أوائل السور إنما هو للتبرك، ولامتثال الأمر بطلبها والبدء بها في أوائل الأمور، وهي وإن تواتر كتبُها في أوائل السور، فلم يتواتر كونها قرآناً فيها.

قال القرطبي: الصحيحُ من هذه الأقوال قول مالك، لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد وإنما طريقُه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه.

قال ابن العربي: ويكفيك أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يختلف فيه. والأخبار الصحاح التي لا مطعن فيها دالة على أن (البسملة) ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلّا في النمل وحدها.

ثم قال: إنّ مذهبنا يترجّح في ذلك بوجه عظيم وهو المعقول، وذلك أن مسجد النبي ﷺ بالمدينة انقضت عليه العصور، ومرّت عليه الأزمنة والدهور، من لدن رسول الله ﷺ إلى زمان مالك، ولم يقرأ أحد فيه قطّ (بسم الله الرحمن الرحيم)

---

(١) أخرجه مسلم من حديث سفيان بن عُيينة عن أبي هريرة مرفوعاً ١/٢٩٦ برقم (٣٩٥)، وانظر أحكام القرآن للجصاص ١/٩، وتفسير القرطبي ١/٩٤.

اتّباعاً للسُنّة، وهذا يردّ ما ذكرتموه، بيد أن أصحابنا استحبوا قراءتها في النفل، وعليه تُحمل الآثار الواردة في قراءتها أو على السعة في ذلك»[1].

دليل الحنفية:

وأما الحنفية فقد رأوا أنّ كتابتها في (المصحف) يدل على أنها قرآن ولكن لا يدل على أنها آية من كل سورة، والأحاديثُ الواردة التي تدل على عدم قراءتها جهراً في الصلاة مع الفاتحة تشير على أنها ليست من الفاتحة، فحكموا بأنها آية من القرآن تامة ــ في غير سورة النمل ــ أنزلت للفصل بين السور.

ومما يؤيد مذهبهم ما روي عن الصحابة أنهم قالوا: «كنّا لا نعرف انقضاء السورة حتى تنزل (بسم الله الرحمن الرحيم)[2].

وكذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه «بسم الله الرحمن الرحيم»[3].

قال الإمام أبو بكر الرازي[4]: «وقد اختُلف في أنها آية من فاتحة الكتاب أم لا؟ فعدّها قُرّاء الكوفة آية منها، ولم يعدّها قُرّاء البصريين، وقال الشافعي: هي آية منها وإنّ تركها أعاد الصلاة، وحكى شيخنا (أبو الحسن الكرخي) عدم الجهر بها، وهذا يدل على أنها ليست منها، ومذهب أصحابنا أنها ليست بآية من أوائل السور، لترك الجهر بها، ولأنها إذا لم تكن من فاتحة الكتاب فكذلك حكمها في غيرها، وزعم الشافعي أنها آية من كل سورة، وما سبقه إلى هذا القول أحد، لأن الخلاف بين السلف إنما هو في أنها آية من (فاتحة الكتاب) أو ليست بآية منها، ولم يعدّها أحد آية من سائر السور.

---

(١) انظر تفصيل الأدلة في تفسير القرطبي ١/٩٣، وفي أحكام القرآن لابن العربي ١/٢٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/٩٥.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، وأبو داود عن ابن عباس بإسناد صحيح.

(٤) هو الإمام المشهور بـ (الجصاص) صاحب تفسير آيات الأحكام، وهو غير الإمام الفخر الرازي صاحب التفسير الكبير.

obeikandl.com

ثم قال: ومما يدل على أنها ليست من أوائل السور، ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: (سورة في القرآن ثلاثون آية شفعت لصاحبها حتى غفر له «تبارك الذي بيده الملك») واتفق القرّاء وغيرهم أنها ثلاثون سوى (بسم الله الرحمن الرحيم) فلو كانت منها كانت إحدى وثلاثين وذلك خلاف قول النبي ﷺ. ويدل عليه أيضاً اتفاق جميع قرّاء الأمصار وفقائهم على أن سورة (الكوثر) ثلاث آيات، وسورة (الإخلاص) أربع آيات، فلو كانت منها لكانت أكثر ممّا عدّوا»[1].

الترجيح: وبعد استعراض الأدلة وما استدل به كل فريق من أئمة المذاهب نقول: لعلّ ما ذهب إليه الحنفية هو الأرجح من الأقوال، فهو المذهب الوسط بين القولين المتعارضين، فالشافعية يقولون إنها آية من الفاتحة ومن أول كل سورة في القرآن، والمالكية يقولون: ليست بآية لا من الفاتحة ولا من القرآن (ولكلٍّ وجهة هو موليها) ولكنْ إذا أمعنا النظر وجدنا أن كتابتها في المصحف، وتواتر ذلك بدون نكير من أحد ــ مع العلم بأنّ الصحابة كانوا يجرّدون المصحف من كل ما ليس قرآناً ــ يدلّ على أنها قرآن، لكن لا يدل على أنها آية من كل سورة، أو آية من سورة الفاتحة بالذات، وإنما هي آية من القرآن وردت للفصل بين السور، وهذا ما أشار إليه حديث ابن عباس السابق (إنّ رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السور حتى ينزل عليه: (بسم الله الرحمن الرحيم) ويؤكد أنها ليست من أوائل السور أن القرآن نزل على مناهج العرب في الكلام، والعربُ كانت ترى التفنّن من البلاغة، لا سيّما في افتتاحاتها، فلو كانت آية من كل سورة لكان ابتداء كلّ السور على منهاجٍ واحد، وهذا يخالف روعة البيان في معجزة القرآن.

وقول المالكية لم يتواتر كونها قرآناً فليست بقرآن غير ظاهر ــ كما يقول

---

(١) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٩ ــ ١١ بتصرف، هذا وقد أورد الإمام الفخر الرازي ست عشرة حجة في أن البسملة آية من الفاتحة، وردَّ عليه الألوسي في تفسيره «روح المعاني». وقد لاح لي عند قراءة الأدلة والرد عليها، أنَّ كلاًّ منهما قد تعصَّب لمذهبه، وهذا مما لا ينبغي أن يكون، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع!!

الجصّاص ـ إذ ليس بلازم أن يقال في كل آية إنها قرآن ويتواتر ذلك، بل يكفي أن يأمر الرسول ﷺ بكتابتها ويتواتر ذلك عنه ﷺ، وقد اتفقت الأمة على أن جميع ما في المصحف من القرآن، فتكون البسملة آية مستقلة من القرآن كرّرت في هذه المواضع على حسب ما يكتب في أوائل الكتب على جهة التبرك باسم الله تعالى، وهذا ما تطمئن إليه النفس وترتاح، وهو القول الذي يجمع بين النصوص الواردة[1] والله أعلم.

الحكم الثاني: ما هو حكم قراءة البسملة في الصلاة؟

اختلف الفقهاء في قراءة البسملة في الصلاة على أقوال عديدة:

(أ) **فذهب مالك رحمه الله** إلى منع قراءتها في الصلاة المكتوبة، جهراً كانت أو سرّاً، لا في استفتاح أم القرآن، ولا في غيرها من السور، وأجاز قراءتها في النافلة.

(ب) **وذهب أبو حنيفة رحمه الله** إلى أن المصلي يقرؤها سراً مع الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة، وإن قرأها مع كل سورة فحسن[2].

(ج) **وقال الشافعي رحمه الله**: يقرؤها المصلي **وجوباً**، في الجهر جهراً، وفي السرّ سراً.

(د) **وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه**: يقرؤها سرّاً ولا يسنّ الجهر بها.

وسبب الخلاف هو اختلافهم في (بسم الله الرحمن الرحيم) هل هي آية من الفاتحة ومن أول كل سورة أم لا؟ وقد تقدم الكلام على ذلك في الحكم الأول.

---

(١) انظر تفصيل الأدلة بتوسع في أحكام القرآن للجصاص، وأحكام القرآن لابن العربي، وتفسير القرطبي، والفخر الرازي، وقد جمع (الدارقطني) الأدلة التي تدل على أن البسملة من القرآن في جزء صحّحه، كما جمع عدد من العلماء الأدلة التي ترجح قرآنيتها، والله أعلم.

(٢) انظر أحكام القرآن للجصاص ١/١٥، وتفسير القرطبي ١/٩٦، وزاد المسير ١/٧.

وشيء آخر هو اختلاف آراء السلف في هذا الباب.

قال ابن الجوزي في زاد المسير:

وقد اختلف العلماء هل البسملة من الفاتحة أم لا؟ فيه عن أحمد روايتان، فأمّا من قال: إنها من الفاتحة، فإنه يوجب قراءتها في الصلاة إذا قال بوجوب الفاتحة، وأمّا من لم يرها من الفاتحة فإنه يقول: قراءتها في الصلاة سنّة، ما عدا مالكاً رحمه الله فإنه لا يستحب قراءتها في الصلاة.

واختلفوا في الجهر بها في الصلاة فيما يجهر به، فنقل جماعة عن أحمد: أنه لا يُسنّ الجهر بها، وهو قول أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، ومذهب الثوري، ومالك، وأبي حنيفة.

وذهب الشافعي إلى أن الجهر بها مسنون، وهو مرويّ عن معاوية، وعطاء، وطاووس[1].

الحكم الثالث: هل تجب قراءة الفاتحة في الصلاة؟

اختلف الفقهاء في حكم قراءة فاتحة الكتاب في الصلاة على مذهبين:

(أ) مذهب الجمهور (مالك والشافعي وأحمد) أن قراءة الفاتحة شرط لصحة الصلاة، فمن تركها مع القدرة عليها لم تصحّ صلاته.

(ب) مذهب الثوري وأبي حنيفة: أن الصلاة تجزىء بدون فاتحة الكتاب مع الإساءة ولا تبطل صلاته، بل الواجب مطلق القراءة وأقله ثلاث آيات قصار، أو آية طويلة.

أدلة الجمهور:

استدل الجمهور على وجوب قراءة الفاتحة بما يلي:

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١/٧ ـ ٨ بشيء من الاختصار.

obeikandl.com

أولاً: حديث عُبادة بن الصامت وهو قوله عليه الصلاة والسلام: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)[1].

ثانياً: حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ الكتاب فهي خِداج[2]، فهي خِداج، فهي خداج غير تمام)[3].

ثالثاً: حديث أبي سعيد الخدري (أُمِرْنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسّر)[4].

قالوا: فهذه الآثار كلّها تدل على وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة، فإنّ قوله ﷺ: (لا صلاة لمن يقرأ بفاتحة الكتاب) يدل على نفي الصحة، وكذلك حديث أبي هريرة فهي خِداج قالها عليه السلام ثلاثاً يدل على النقص والفساد، فوجب أن تكون قراءة الفاتحة شرطاً لصحة الصلاة.

أدلة الحنفية:

استدل الثوري وفقهاء الحنفية، على صحة الصلاة بغير قراءة الفاتحة، بأدلةٍ من الكتاب والسنّة نوجزها فيما يلي:

أمّا الكتاب فقوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ قالوا: فهذا يدل على أن الواجب أن يقرأ أيّ شيءٍ تيسّر من القرآن، لأن الآية وردت في القراءة في الصلاة، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾ إلى قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ ولم تختلف الأمة أن ذلك في شأن الصلاة في

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢/١٩٩، ومسلم برقم (٣٩٤) في الصلاة، والترمذي برقم (٢٤٧)، وأبو داود برقم (٨٢٢)، والنسائي ٢/١٣٧.

(٢) الخِداج: بكسر الخاء النقص، قال الأصمعي: الخِدَاجُ: النقصان، وأصل ذلك من خداج الناقة، إذا ولدت ولداً ناقص الخلق، أو لغير تمام، كذا في اللسان.

(٣) الحديث أخرجه مسلم في الصلاة ١/٢٩٦، ومالك في الموطأ ١/٨٤، وأبو داود برقم (٨١٩)، والترمذي برقم (٢٩٥٤) في التفسير، والنسائي ٢/١٣٥ في الافتتاح.

(٤) رواه أبو داود وإسناده صحيح ورواته ثقات، كذا في نيل الأوطار ٢/٢١٩، وانظر جامع الأصول ٥/٣٢٨.

obeikandl.com

الليل، وذلك عمومٌ عندنا في صلاة الليل، وغيرها من النوافل والفرائض، لعموم اللفظ(١).

وأما السنّة فما رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً دخل المسجد فصلّى، ثم جاء فسلّم على النبيّ ﷺ فردَّ عليه السلام وقال: «ارجع فصلِّ فإنك لم تُصَلِّ» فصلى ثم جاء فأمره بالرجوع، حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فقال: والذي بعثك بالحق ما أُحْسنُ غيره، فقال عليه الصلاة والسلام: «إذا قمتَ إلى الصلاة فأسبغْ الوضوء، ثمّ استقبل القبلة فكبّر، ثمّ اقرأ ما تيسّر معك من القرآن، ثمّ اركع حتّى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تستوي قائماً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»(٢).

قالوا: فحديث أبي هريرة في تعليم الرجل صلاته يدل على التخيير «ثم اقرأ ما تيسّر معك من القرآن» ويقوّي ما ذهبنا إليه، وما دلت عليه الآية الكريمة من جواز قراءة أيِّ شيءٍ من القرآن.

وأما حديث (عبادة بن الصامت) فقد حملوه على نفي الكمال، لا على نفي الحقيقة، ومعناه عندهم «لا صلاة كاملة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» ولذلك قالوا: تصح الصلاة مع الكراهة، وقالوا هذا الحديث يشبه قوله ﷺ (لا صلاة لجار المسجد إلاّ في المسجد).

وأما حديث أبي هريرة (فهي خِدَاجٌ، فهي خِدَاج... إلخ)، فقالوا: فيه ما يدلّ لنا لأنّ (الخداج) الناقصة، وهذا يدل على جوازها مع النقصان، لأنها

---

(١) من تفسير أحكام القرآن للجصاص ١/١٨.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ٢/٢٢٩ ومسلم ١/٢٩٨ في الصلاة، وأبو داود برقم (٨٥٦)، والترمذي برقم (٣٠٣)، والنسائي ٢/١٢٥، وانظر جامع الأصول ١/٤٢٣، وأحكام القرآن للجصاص ١/٢٠.

لو لم تكن جائزة لما أُطلق عليها اسم النقصان، لأن إثباتها ناقصة ينفي بطلانها، إذْ لا يجوز الوصف بالنقصان للشيء الباطل الذي لم يثبت منه شيء.

هذه هي خلاصة أدلة الفريقين سردناها لك بإيجاز، وأنت إذا أمعنتَ النظر، رأيت أنّ ما ذهب إليه الجمهور أقوى دليلاً، وأقوم قيلاً، فإنّ مواظبته عليه الصلاة والسلام على قراءتها في الفريضة والنفل، ومواظبة أصحابه الكرام عليها دليل على أنه لا تجزيء الصلاة بدونها، وقد عضد ذلك الأحاديثُ الصريحة الصحيحة، والنبي عليه الصلاة والسلام مهمته التوضيح والبيان، لما أُجْمِلَ من معاني القرآن، فيكفي حجّةً لفريضتها ووجوبها قولُه وفعله عليه السلام.

وممّا يؤيد رأي الجمهور ما رواه مسلم عن أبي قتادة أنه قال: «كان رسول الله ﷺ يصلّي بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأوليَيْن بفاتحة الكتاب وسورتين، ويُسمعنا الآية أحياناً، وكان يطوّل في الركعة الأولى من الظهر، ويقصر الثانية، وكذلك في الصبح».

وفي رواية: «ويقرأ في الركعتين الأخريين بفاتحة الكتاب».

قال الطبري: «يقرأ بأم القرآن في كل ركعة، فإن لم يقرأ بها لم يجزه إلا مثلها من القرآن عدد آياتها وحروفها»(١).

قال القرطبي: والصحيح من هذه الأقوال، قولُ الشافعي وأحمد ومالك في القول الآخر، وأن الفاتحة متعينة في كل ركعةٍ لكل أحدٍ على العموم لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) وقد روي عن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، وأبي هريرة، وأُبيّ بن كعب، وأبي أيوب الأنصاري، وعبادة بن الصامت، وأبي سعيد الخدري أنهم قالوا: «**لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب**». فهؤلاء الصحابة القُدوة، وفيهم الأسوة، كلُّهم يوجبون الفاتحة في كل ركعة(٢).

---

(١) جامع البيان للطبري ١/٦٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/١١٩ بشيء من الاختصار.

وقال الإمام الفخر: «إنه عليه السلام واظب طول عمره على قراءة الفاتحة في الصلاة، فوجب أن يجب علينا ذلك لقوله تعالى: ﴿واتَّبِعُوهُ لعلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ويا لَلْعجب من أبي حنيفة فإنه تمسّك في وجوب «مسح الناصية» بخبر واحدٍ، وذلك ما رواه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه أتى سُباطة[1] قومٍ، فبال وتوضأ، ومسح على ناصيته وخفَّيْه، فاحتجَّ في أنه عليه السلام مسح على الناصية فجعل ذلك القدر من المسح شرطاً لصحة الصلاة!! وههنا نقل أهل العلم نقلاً متواتراً أنه عليه السلام واظب طول عمره على قراءة الفاتحة، ثم قال: إن صحة الصلاة غير موقوفة عليها، وهذا من العجائب!»[2].

الحكم الرابع: هل يقرأ المأموم خلف الإمام؟

اتفق العلماء على أن المأموم إذا أدرك الإمام راكعاً فإنه يحمل عنه القراءة، لإجماعهم على سقوط القراءة عنه بركوع الإمام، وأمَّا إذا أدركه قائماً فهل يقرأ خلفه، أم تكفيه قراءة الإمام؟ اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

(أ) **فذهب الشافعي وأحمد** إلى وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام سواء كانت الصلاة سرّية أم جهرية.

(ب) **وذهب مالك** إلى أن الصلاة إذا كانت سِرِّيةً قرأ خلف الإمام، ولا يقرأ في الجهرية.

(ج) **وذهب أبو حنيفة** إلى أنه لا يقرأ خلف الإمام، لا في السِرِّيةِ ولا في الجهرية.

استدل الشافعية والحنابلة بالحديث المتقدم وهو قوله ﷺ: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب).

---

(١) سُباطة: بضم السين، قال في اللسان: الكُناسة وهي الموضع الذي يُرمى فيه التراب والأوساخ.

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ١/١٤٧، وقد ذكر ـ رحمه الله ـ ثمان عشرة حجة في وجوب قراءة الفاتحة، منها ما هو ضعيفٌ وفي بعضها تكلُّفٌ ظاهر.

obeikandl.com

فإن اللفظ عام يشمل الإمام والمأموم، سواء كانت الصلاة سرية أم جهرية، فمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب لم تصحّ صلاته.

واستدل الإمام مالك على قراءة الفاتحة إذا كانت الصلاة سرّية بالحديث المذكور، ومنع من القراءة خلف الإمام إذا كانت الصلاة جهرية لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وقد نقل القرطبي عن الإمام مالك أنه لا يقرأ في الجهرية بشيء من القرآن خلف الإمام، وأمّا في السرّية فيقرأ بفاتحة الكتاب، فإن ترك قراءتها فقد أساء ولا شيء عليه.

وأمّا الإمام أبو حنيفة فقد منع من القراءة خلف الإمام مطلقاً، عملاً بالآية الكريمة: ﴿وإذا قُرِىءَ القرآنُ فاستمِعُوا له﴾ ولحديث «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»[1].

واستدل أيضاً بما روي عن النبي ﷺ أنه قال:

«إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبّر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا»[2].

الترجيح: ولعلَّ ما ذهب إليه المالكية، من قراءة الفاتحة وراء الإمام في السرِّية، وعدم قراءتها في الجهرية، هو الأولى والأرجح، لأنه وسط بين المذهبين والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه عبد ابن حُميد عن جابر رضي الله عنه.

خاتمة البحث :

حكمة التشريع

يقف الإنسان بين يدي هذه السورة الكريمة «سورة الفاتحة» وَقْفة العبد الخاشع، المعترف بالعجز، المقرِّ بالتقصير، فإن هذه السورة وحي منزَّل من عند الله، وهي من كلام ربِّ العالمين، وكلام الله فوق أن يحيط به عقل قاصر من بني الإنسان، أو يدرك أسراره العميقة بشر، مهما أوتي من النبوغ والذكاء، وسعة العلم والاطلاع.

وقُصارى ما يدركه الإنسان، أن يحسّ من قرارة نفسه، بروعة هذا القرآن الكريم، وسمو معانيه، وجمال ألفاظه، وأن يشعر بالعجز الكامل عن أن يأتي بمثل آية من آياته، فضلاً عن مثل الكتاب العزيز، فإن هذه السورة الكريمة، على قصرها ووجازتها قد حوت معاني القرآن العظيم، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، فهي تتناول أصول الدين وفروعه، تتناول العقيدة، والعبادةَ، والتشريعَ، والاعتقاد بالجزاء والحساب، والإيمانَ بصفات الله الحسنى، وإفراده بالعبادة، والاستعانة، والدعاء، والتوجهَ إليه جل وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم، والتضرعَ إليه بالتثبيت على الإيمان، ونهج سبيل الصالحين، وتجنبِ طريق المغضوب عليهم أو الضالّين إلى غير ما هنالك من مقاصدَ، وأغراضٍ وأهداف.

قال العلامة القرطبي: «سميت الفاتحةُ (القرآنَ العظيم) لتضمنها جميع علومه، وذلك لأنها تشتمل على الثناء على الله عز وجل بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلاّ بإعانته تعالى، وعلى الابتهال إليه في الهداية إلى الصراط المستقيم، وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيان عاقبة الجاحدين، وهذه جملة المقاصد التي جاء بها القرآن العظيم»[1].

---

(1) تفسير القرطبي ج ١.

يقول شهيد الإسلام الشيخ حسن البنا رحمه الله في رسالته القيمة «مقدمة في التفسير»:

«لا شك أن من تدبّر الفاتحة الكريمة ـ وكلّ مؤمن مطالب بتدبرها في تلاوته عامة، وفي صلاته خاصة ـ رأى من غزارة المعاني، وجمالها، وروعة التناسب، وجلاله، ما يأخذ بلبه، ويضيء جوانب قلبه. فهو يبتدىء ذاكراً تالياً متيمناً باسم الله الموصوف بالرحمة، التي تظهر آثار رحمته متجدّدة في كل شيء، مستشعراً أنّ أساس الصلة بينه وبين خالقه العظيم، هو هذه الرحمة التي وسعت كل شيء. فإذا استشعر هذا المعنى، ووقر في نفسه، انطلق لسانه بحمد هذا الإله (الرحمن الرحيم) وذكّره الحمد بعظيم نِعَمِه، وكريم فضله، وعظيم آلائه، البادية في تربيته للعوالم جميعاً، فأجال بصيرته في هذا المحيط الذي لا ساحل له، ثمّ تذكّر من جديد أنّ هذه النعم الجزيلة، والتربيةَ الجليلة، ليست عن رغبة ولا رهبة، ولكنّها عن تفضل ورحمة، فنطق لسانه مرة ثانية بالرحمن الرحيم، ولكن من كمال هذا الإله العظيم أن يقرن (الرحمنَ بـ (العدل) ويذكّر بالحساب بعد الفضل، فهو مع رحمته السابغة المتجددة، سيُدينُ عباده، ويحاسب خلقه يوم الدين (يومَ لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله).

فتربيته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة، والترهيب بالعدالة والحساب، وإذا كان الأمر كذلك، فقد أصبح العبد مكلفاً بتحري الخير، والبحث عن وسائل النجاة، وهو في هذا أشدُّ ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل، ويرشده إلى الصراط المستقيم، وليس أولى به في ذلك من خالقه ومولاه، فليلجأ إليه وليعتمد عليه، وليخاطبه بقوله: (إيّاك نعبد وإيّاك نستعين) وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه، غير المغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء، والنكوص بعد الاهتداء، وغيرِ الضالين التائهين، الذي يضلون عن الحق، أو يريدون الوصول إليه فلا يُوفّقون للعثور عليه آمين.

ولا جرم أن (آمين) براعة مقطع في غاية الجمال والحسن، وأي شيء أولى بهذه البراعةمن فاتحة الكتاب، والتوجه إلى الله بالدعاء؟

فهل رأيت أخي المستمع تناسقاً أدق، أو ارتباطاً أوثقَ، مما تراه بين معاني هذه الآيات الكريمات؟ وتذكّر وأنت تهيم في أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل. . .) الخ وأدم هذا التدبر والإنعام، واجتهد أن تقرأ في الصلاة أو غيرها على مكث وتمهل، وخشوع وتذلّل، وأن تقف على رؤوس الآيات، وتعطي التلاوة حقها من التجويد أو النغمات، من غير تكلف ولا تطريب، واشتغال بالألفاظ عن المعاني، مع رفع الصوت المعتدل في التلاوة العادية، أو الصلاة الجهرية، فإنّ ذلك يعين على الفهم، ويثير ما غاض من شآبيب الدمع، وما نفع القلبَ شيء أفضل من تلاوةٍ في تدبر وخشوع[1].

***

(١) مقدمة في التفسير للشيخ حسن البنا ص ٥٩، طبعة دار القرآن الكريم.

obeikandl.com